تطور الاستيطان في جنوب بلاد الرافدين
في الألفين الرابع والثالث ق.م

د. جمعة حريز الطلبي
كلية الآداب / جامعة بغداد
Jumaahhariz@coart.uobaghdad.edu.iq

الخلاصة:
تمثل حقبة الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد دون منازع مقدمة التمدن والتعقيد الاجتماعي، وقد وصفت بأوصاف متنوعة وسميت بأسماء مختلفة؛ عصر الثورة المدنية، إذ ما نظر لها من زاوية فهم التعقيد السكاني وأشكال المستوطنات، أو عصر التمدن الأول، فقد ظهرت فيها بدايات الدولة أو دويلات المدن. وتمثل هذه الحقبة المرحلة الأولى والبداية لمفاهيم التقسيم الطبقي الاجتماعي والاقتصادي، فضلاً عن ظهور التخصص في العمل كنمط من أنماط الإنتاج والاقتصاد. كما يمكن ووصفها بمصطلح «أصل التعقيد»، إذا ما حاولنا استيعاب كل الجوانب المختلفة في إطار مفهوم موحد.

حدثت هذه العمليات الحضارية الكبرى في أقصى الجنوب الرافديني، وكانت نتيجة للتحسينات التكنولوجية والاستراتيجيات الاجتماعية والسياسية الكبيرة التي تبناها سكان هذه المنطقة. إذ بنوا خزانات المياه وشقوا قنوات الري ثم أصلحوا الأراضي الزراعية بجوار الأنهار. اخترعوا المحراث واستفادوا من القوة الحيوانية والعربات، والمناجل الطينية، وعملوا على تطور وسائل الخزن. ليس ممكناً تصور هذه الثورة المدنية دون الالتفات للنشاط الإداري للهيئات المركزية والنخب. عملياً ما كان لكل للتحسينات التكنولوجية وحدها أن تحدث « ثورة » على الإطلاق، لو لا الإدارة المركزية التي كانت أحد عوامل الحسم من خلال تحويل معظم الفائض إلى الاستخدام الاجتماعي: سواء لتمويل المشاريع المشتركة (شبكات الري، بناء المعبد، الجدران الدفاعية)، ولدعم وإعالة الحرفيين المتخصصين والنخبة الاجتماعية والسياسية.

أسهم النهران العظيمان دجلة والفرات وترسباتهما في تكوين وتشكيل المشهد الطبيعي ومسرح الأحداث. ذلك أن تفاعل الإنسان في هذه البيئة- سلباً أو إيجاباً- كان هو المحرك الأساسي في التطور والإبداع الذي حصل في كل مفاصل الحضارة في هذه المنطقة. ازداد عدد وحجم المستوطنات عن سابقاتها في عصر العبيد وتحول بعضها إلى مدن عامرة بالسكان مزدانة بالرخاء الاقتصادي الناتج عن تنظيم الحياة الزراعية وإدارتها، من خلال السيطرة على تنظيم الموارد المائية بواسطة شق الأنهار الفرعية والقنوات وعمل السدود، وتخصيص العمل وظهور الحرفيين وازدهار التجارة الداخلية والخارجية. ادارت النخب مجاميع الناس، وتمتعت بقدر من الهيبة الدينية والسياسية رافقتها قدرة اقتصادية فازدهر المجتمع وسادت ثقافة الجنوب في الألف الرابع قبل الميلاد كل البلاد من شمالها إلى جنوبها في وحدة حضارية قل نظريها، وامتدت تأثيراتها في الشرق والغرب.

تغير الحال في الإلف الثالث قبل الميلاد وتشتت هذه الوحدة الثقافية والحضارية، ودخلت دويلات المدن في هذه المنطقة في صراعات دموية من أجل الهيمنة والسيطرة على السهل الرسوبي وطرق التجارة في المناطق الجبلية من بلاد الأناضول وإيران. وظهرت ثقافات منفصلة تؤشر تنوع سكاني كبير. وفي أواخر هذه المدة ظهرت الكيانات السياسية الكبرى، فقد برز بعض القادة ممن حلموا بالتفوق والامتداد، فكانت نواة الإمبراطوريات العظمى التي انطلق عقالها من هذه الأرض. مراكز هذه الكيانات الكبرى تفاعلت مع المدن الأخرى بشكل منتظم في كافة الجوانب؛ السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

الكلمات المفتاحية: جنوب بلادي الرافدين، الاستيطان، المباني العبادية، المعبد، عمارة البيت.

The development of settlement in southern Mesopotamia in 4th and 3th millennium BC

Dr.Jumaah Hariz Altalabi
college of Arts/ University of Baghdad
Jumaahhariz@coart.uobaghdad.edu.iq

Abstract:

The fourth and third millennium BC is the preface to urbanization and social complexity, especially the first half, which occupied most of the fourth millennium BC. In this period emerged a series of civilizational processes, as well as several inventions and developments; cites ,city-state, writing, specialization and Pantheon. These developments point to the existence of a complex society organized by the theocracy . The southern part of Mesopotamia was the center and nucleus of this era, but its influence extend and spread in generality of the Near East. The number and size of settlements have increased considerably in this era, and urban settlements were not only in the sense of size but also in terms of function. While in the second half of this era, the third millennium BC, set up the foundations of religion and civilization of Mesopotamia and its main rituals and dogmatic . The settlements have grown significantly, expanded in size and increased in number. The first form of empires appeared, which had its center is the capital, where most of the political, administrative and economic activities are concentrated, as well as religious activities.

Key Words: South Mesopotamia,settlement, The cult buildings, Temple, the house architecture.

مقدمة:

تعد حقبة الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد مقدمة التمدن والتعقيد الاجتماعي، خاصة النصف الأول منها الذي شغل معظم الألف الرابع قبل الميلاد. فقد ظهرت فيه مجموعة من العمليات الحضارية، فضلاً عن مجموعة من الاختراعات والتطورات منها؛ المدن ودويلات المدن والكتابة والتخصص في كثير من المجالات، فضلاً عن ظهور مجمع الآلهة (البانثيون) بشكله الواضح. تؤشر هذه التطورات وجود مجتمع معقدٍ نظم بواسطة طبقة كهنوتية (سلطة = حكومة ثيوقراطية)، كان للتخصص في العمل دوراً مهماً في هذه التطورات. شكل القسم الجنوبي من بلاد الرافدين المركز والنواة لهذه الحقبة، لكن تأثيراته امتدت وانتشرت في أغلب مناطق الشرق الأدنى.

ازداد عدد وحجم المستوطنات بشكل واسع في هذه الحقبة، وخاصة في منطقتين هما؛ منطقة المركز ونعني أقصى الجنوب، بحيث يمكن وصف عدد من المستوطنات في بلاد سومر في النصف الثاني من الألف الرابع بأنها مستوطنات حضرية، ليس فقط بمعنى الحجم بل كذلك بمعنى الوظيفة، ومنطقة جنوب بلاد بابل، نعني المناطق من بابل وكيش وباتجاه الجنوب. يبدو أن عدد السكان كان متساوياً في كلتا المنطقتين، وإن عاش الناس في ثلاثة مراكز بحجم ٣٠-٥٠ هكتاراً في المنطقة الثانية تقريباً. وشكلت مدن الجنوب في هذه الحقبة مراكز لتنظيمات سياسية كبيرة منظمة سياسياً ودينياً

واجتماعياً. وحظى التنظيم الكهنوتي بأهمية ذات دلالة في تنظيم المجتمع بشكل عام، وتولت نخبة متنفذة قيادة مجموعات أقل مركزاً وثروة، ومن المحتمل أن سلطة النخبة التي كانت تسيطر على المؤسسات كانت مشخصة إلى درجة واضحة بمفاهيم دينية، والدليل الواضح على هذه المؤسسات يأتي من حي أي– أننا الديني في مدينة الوركاء، وهو الحي المقدس للإلهة المقدسة الحامية إنانا. بينما وضعت في النصف الثاني من هذه الحقبة، نعني الألف الثالث ق.م، أسس ديانة حضارة بلاد الرافدين وشعائرها وعقائدها الرئيسة، التي استمرت بالتطور والتحوير إلى العصور التاريخية اللاحقة. إذ طور الحكماء والمفكرون السومريون أصحاب هذه الحضارة على المستوى العقلي والروحي علماً لاهوتياً كونياً أصبح العقيدة والدغماطيقيا الأساسيتين في جميع أنحاء الشرق الأدنى. كما يوضح نظام الحكم في عصر السلالات المبكرة خلفية طويلة وتطوراً سياسياً غير معروف لنا الآن، قد يكون الكهنة في بادئ الأمر هم الحكام الأوائل، خاصة وأن المعتقدات الدينية تؤكد بأن البشر قد خلقوا لخدمة الآلهة وتوفير ما تحتاجه.

في جانب الاستيطان شهدت المستوطنات نمواً جوهرياً من ناحية الحجم والعدد، لكنها ظلت إلى حد كبير ضمن المنطقة التي تم استيطانها من قبل، أي أن حدود مناطق الاستيطان الرئيسة في الجنوب ظلت كما هي دون أن تتغير قليلاً.

تميز النصف الثاني من الألف الثالث بظهور الشكل الأول من الإمبراطوريات، التي كان لها مركزاً هو العاصمة، تتركز فيه معظم الأعمال السياسية والإدارية والاقتصادية، فضلاً عن النشاطات الدينية. تشكل العاصمة بشكل عام " نقطة جذب "، وهذا ما تأكد من خلال أعمال التنقيب التي جرت في المدن الكبرى مثل; بابل وآشور ونمرود ونينوى وسوسة، وفيها تتركز القصور والمعابد الفخمة، وكذلك مساكن ودور النخبة التي امتازت بغناها وتنوع موادها الأثرية.

يحاول هذا البحث تقديم الإجابة أو المتلازمة التاريخية في مسألة تطور الاستيطان في جنوب بلاد الرافدين خلال الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد، وربطها بالتطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية والسكانية.

مسرح الأحداث :

أسهم النهران العظيمان دجلة والفرات وترسباتهما في تكوين وتشكيل المشهد الطبيعي ومسرح الأحداث في جنوب بلاد الرافدين. ذلك أن تفاعل الإنسان في هذه البيئة- سلباً أو إيجاباً- كان هو المحرك الأساسي في التطور والإبداع الذي حصل في كل مفاصل الحضارة. لذا يمكن القول أن هذه الحضارة تقترن بوجود النهرين الخالدين دجلة والفرات وروافدهما [1].

يبلغ معدل ما يجلبه النهران من طمى من مرتفعات زاغروس ومرتفعات الأناضول ومنابعهما في الأراضي التركية في موسم الفيضان نحو ثلاثة ملايين طن يومياً، وهو ما أدى إلى ترسب الطمى وتراكمه عبر العصور ومن ثم تراجع مياه الخليج جنوباً وفقاً لبعض النظريات [2]. لذا كانت منطقة السهل الرسوبي منطقة خصبة جداً بحكم ما يرميه فيها النهران من طمى، لكنها شديدة الحرارة والجفاف لا يمكن أن تقوم فيها الزراعة بدون الري من مياه الأنهار بواسطة السدود والقنوات. كذلك هناك مشكلة الملوحة في التربة، إذ تؤدي الحرارة الشديدة والأمطار القليلة إلى سرعة التبخر وتركيز الأملاح القلوية في التربة، لهذا فإن هذه البيئة تحتاج إلى أعمال صرف جيدة ومستمرة [3].

وفرت هذه المنطقة من بلاد الرافدين من خلال بيئاتها النهرية ومسطحاتها المائية ثروة هائلة من الأسماك والطيور، فضلاً عن توفر المراعي والحقول التي كانت خير معين للرعاة، إذ وفرت مصدر كبير لغذاء حيواناتهم. كما أتسعت مساحة الأرض المزروعة نتيجة الطمى الخصب ومياه الري للنهرين، الأمر الذي ساعد على وفرة المحاصيل الزراعية، وجعل من هذه المنطقة سلة غذاء قادرة على إعاشة الملايين من البشر. من البديهي القول أن الزراعة المطرية توفر غلة ومحصول أكثر وأضمن من نظيرتها الزراعة البعلية أو تلك التي تعتمد على الفيضانات ولا تنتج إلا غلة واحدة على مدار العام، على حين يمكن لزراعة

الري أن تنتج محصولين أو ثلاثة [4]. أدت عملية الإنتاج الوفير للغذاء في هذه المنطقة، فضلاً عن افتقارها إلى المواد الأساسية الأخرى مثل الأحجار والأخشاب، إلى تشجيع وازدهار التجارة الداخلية والخارجية، وعملت على تكثيف الصادرات والواردات. أدى النهران دجلة والفرات دوراً حيوياً في عمليات نقل البضائع وتبادل السلع، فقد شكلت روافدهما مسالك حيوية سهلت المواصلات وساعدتك على تنشيط حركة التبادل التجارية بين جنوب العراق والمناطق المحيطة، فضلاً عن تسهيل نقل المواد الغذائية من مختلف مناطق الريف إلى المدن[5].

إن مساهمة النهرين كانت عظيمة، فقد أديا دوراً كبيراً في حياة السكان، إذ من المعروف أن المدنيات القديمة كلها قامت على ضفاف الأنهار. وكان دورهما أساسياً في الجانب الاقتصادي، ولا سيما في مجال إقامة مشاريع الري، وهو ما أدى إلى تنشيط العمليات الزراعية في القرى الزراعية القديمة التي نمت تدريجياً ثم تحولت إلى مدن في القسم الجنوبي من العراق في حدود الألف الرابع ق.م [6].

افترض الآثاري ليو اوبنهايم أن البدايات الأولى للاستيطان في منطقة الجنوب الرافديني كانت عن طريق تجمع أصحاب الأراضي والحقول والبساتين والعقارات الريفية التي تقع على طول القنوات والمنخفضات الطبيعية السهلة الاستصلاح باستخدام وسائل الري البسيطة التي يمكن أن يقوم بها أفراد العائلة وعبيد الأرض، الذين استطاعوا إنتاج محاصيل تعطى إلى صاحب المزرعة وعائلته [7]. وحينما ازداد الرخاء وأصبح هناك فائض في الإنتاج، ساعدت الأوضاع الجديدة في زيادة عدد السكان، الأمر الذي أدى إلى زيادة الطلب على الأراضي الزراعية القريبة من النهر. وترتب على ذلك نتيجتان؛ أولاهما الحاجة الملحة لشق قنوات ري جديدة لتوصيل مياه النهر إلى أراضٍ بعيدة عنه لاستصلاحها وزراعتها، وثانيهما حدة التنافس والصراع على الأراضي الزراعية المحاذية للنهر، وهو ما زاد من قيمة تلك الأراضي وثراء من يمتلكونها مقارنة بتلك البعيدة عن مصادر المياه [8].

كانت عملية إدارة الموارد المائية في الحضارات النهرية وتزويد المدن بالمياه، وما تحتاجه من إدارة وتنسيق، من القضايا المهمة التي شغلت المجتمعات القديمة، بخاصة النخب والحكام، ونالت رعايتهم واهتمامهم. لذا قاموا بشق الجداول والقنوات المائية التي كانت مياهها أقل عنفاً من تيار مياه النهرين وقللوا بذلك من إمكانية حدوث فيضانات مدمرة. وقد أدى هذا الأمر إلى تبني أنظمة ري بسيطة تعتمد على ارتفاع مستوى القنوات عن مستوى السهل المجاور، كذلك عملوا على حفر فجوات صغيرة عند الضفاف العالية لاستيعاب الماء وتحويله منها إلى قنوات أصغر بامتداد أراضيهم الزراعية لإروائها [9].

كل هذا أدى إلى نمو المدن في هذا القسم من بلاد الرافدين، التي كبرت بالتدريج بجوار المعبد، الذي كان أكبر وأعلى وأهم بناء في المدينة. وكانت عملية تزويد هذه المدن بالمياه من الأمور ذات الأهمية القصوى للنخب والحكام كما أوردنا [10].

بداية الاستيطان في جنوب بلاد الرافدين

كان الاستيطان في جنوب الرافدين متأخراً نسبياً بالمقارنة مع الأجزاء الأخرى من الشرق الأدنى. وليس هناك أي أثر للاستيطان في هذه المنطقة من العصر الحجري الحديث[11]. لذا يعد عصر العبيد أقدم مراحل الاستيطان في الجزء الجنوبي من بلاد الرافدين، وقد شغل معظم الألف الخامس ق.م، وحلت حضارة هذا العصر محل حضارة عصر(حلف) الشمالية. وكان انتشاره سريعاً، إذ وصل إلى غرب إيران وكذلك مناطق الخليج. كانت المستوطنات في هذا العصر في غالب صغيرة تبلغ مساحتها١هكتار، وإن وجدت مستوطنات كبيرة بلغت مساحاتها نحو عشر هكتارات. كان لهذه المستوطنات مركز تحيط به مجموعة قرى صغيرة. كان المعبد مركز للعبادة في هذا العصر فضلاً عن دوره كمركز لتجميع وتوزيع البضائع الزراعية [12].

أعقب دور العبيد عصراً مميزاً شغل معظم الألف الرابع ق.م، عرف باسم عصر الوركاء، كان عصراً حاسماً وفاصلاً زمنياً مؤثراً في تاريخ البشرية على وجه العموم. سمي بهذا السم نسبة إلى مدينة

الوركاء (آركُ في التوراة) الواقعة على بعد ٣٠ كم جنوب شرق مدينة السماوة. ظهرت في هذا العصر مجموعة كبيرة من التطورات الحضارية والاجتماعية منها؛ تطور الإدارة البيروقراطية والمركزية، التراتبية الاستيطانية ضمن الحدود الاقليمية، وتتضمن المركزية في السيطرة على بعض الفعاليات الرئيسة، التبادل والاستعمار والتأثير والمضاهاة وغيرها من أشكال الاتصال بين الثقافات، التخصص الاقتصادي، إذ تخصص بعض الأفراد في ممارسة الفعاليات المختلفة، فضلاً عن تطور التقاليد الدينية، مما أدى إلى وجود نظم عبادة مفصلة [13].

شكل الجزء الجنوبي من بلاد الرافدين منطقة المركز والنواة، وكانت السيطرة في هذا العصر لمدينة الوركاء، التي امتد تأثيرها إلى أقاليم خارج بلاد الرافدين خلال الألف الرابع ق.م. وشهد هذا العصر ظهور الدول الحقيقية الأولى، على الرغم من أن هذه العملية أو مجموعة العمليات قد حصلت في وقت ما من ماضي بلاد الرافدين، فقد لحقت كل دولة منها بالكيان الذي يسبق من الدول [14].

ضمت هذه المدن أعداداً كبيرة من السكان، الذين كانوا خليطاً غير متجانس، ومارسوا أعمالاً مختلفة ؛ حرف ومهن متنوعة، نتيجة ظهور التخصص في العمل وانتشاره في هذه المدن، الأمر الذي ترتب عليه الحاجة الماسة إلى فائض ضخم من المنتجات الزراعية، وهو ما قامت بإنتاجه وتصديره مناطق الضواحي والأرياف المحيطة بالمدن. عملية إنتاج هذا الفائض ونقله إلى المدن تطلبت توسيع رقعة الأرض المزروعة فضلاً عن تكنولوجيا متقدمة في مجال الزراعة ومجال النقل والمواصلات[15].

إذا ما أخذنا مدينة الوركاء كمثال على تطور هذه المدن الجنوبية كونها المركز ونقطة الإشعاع في هذا العصر، سنجد أنها نمت بشكل كبير وتوسع حجمها وأصبحت محط الأنظار وقبلة البلاد السياسية. كانت هذه المستوطنة مثل كثير من أقرانها من المستوطنات الجنوبية، عبارة عن قرية صغيرة في عصر العبيد، إلا أنها شهدت اتساعاً في حجمها حتى بلغت نحو ٢٥٠ هكتار، وزاد عدد سكانها حتى بلغ نحو ٥٠٠٠٠ نسمة عند أواخر الرابع ق.م. حتى أنه لم تكن هناك أية مدينة بنصف حجمها في هذه المدة، ومن ثم أصبحت مدينة كبيرة على نحو استثنائي في مطلع الألف الثالث ق.م، فشغلت مساحة بلغت نحو ٦٠٠ هكتار[16].

يبدو أن المدينة قسمت بشكل يتناسب مع الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، إذ أن هناك اتجاه متزايد نحو التخصص في العمل والتسلسل الاجتماعي أواخر الألف الرابع ق.م، كما خصصت بعض الأجزاء من المدينة كمناطق تخصص حرفي في المدينة، وهناك مناطق للصناعات المعدنية. يبدو أن السكان في مركز مثل الوركاء منحوا أو نالوا قدراً من الحرية أكثر من أن يكون رمزياً في عمليات أنتاج الغذاء [17].

يشير عالم الآثار ثوركويلد جاكوبسين إلى أن المعبد في بلاد الرافدين كان في بعض المعاني تمثيلاً لا يقل عن المسرحية الشعائرية وتمثال العبادة، لشكل القوة التي كان يقصد بها أن تملأه[18]. وكانت المعابد تظهر على نحو واضح وجلي العقائد الدينية وتبين مدى نضجها وتبلورها، فهي القلب النابض للمدينة وهي المكان المخصص لإجراء الطقوس والعبادات، فضلاً عن أنها كانت مقراً للحكم وإدارة شؤون المدينة. إذا سكن الحكام الأول الأوائل الذين يحملون لقب (إين) في جناح خاص يدعى إكيبار، وتولوا إدارة المدينة منذ عصر الوركاء. كذلك يمكن الافتراض أن عدد من الموظفين أو العاملين كانوا يعاونونهم في إدارة شؤون المدينة سكنوا بجوار المعبد أيضاً [19].

كان واضحاً، ومن خلال كثير من الدلائل والنصوص، أن المعابد حظيت بأهمية اقتصادية كبيرة، فهي تمتلك معظم الأراضي الزراعية، فالمعبد في عصر الوركاء على سبيل المثال أصبح المركز الرئيسي للنشاط الاقتصادي والاجتماعي ومن ثم السياسي، حتى أن بعض الباحثين تحدثوا عن نشوء مؤسسة المدينة- المعبد، التي شغلت مساحة كبيرة، وكان يسكنها ألاف السكان، وشغلت فيها منطقة المعابد أي-أنا ثلث مساحة المدينة بينما الثلثين للسكان، وأصبحت في منتصف الألف الرابع ق.م، أكبر مدينة في العصور المبكرة. إذ كان المعبد يمثل عماد اقتصاد المدينة، فهو يمتلك باسم إله المعبد معظم الأراضي

الزراعية ويتولى إدارتها والإشراف على تأجيرها أو زراعتها وجمع وارداتها وخزنها في إحدى أجنحته الخاصة بذلك، فضلاً عن دوره المهم في التجارة والصناعة وتشغيل المئات من الصناع والمزارعين وغيرهم[20].

شغلت المباني العامة ومنها المباني الدينية المتمثلة بالمعابد ومنذ أقدم العصور أماكن مميزة في المستوطنات القديمة. إذ أحتلت المعابد المساحة المركزية في المدينة، وكانت تشكل المباني الأكبر والأجمل من بين مباني أية مستوطنة، وعمل المعمار على إظهار المعبد على أفضل ما يكون وإبرازه عن بقية أجزاء المدينة أو القرية، لذا أسهم المعبد في ترسيخ الأسس الهندسية في العمارة من ناحية انتظام الوحدات البنائية فيه [21].

إن عمارة المجمعات البنائية الكبيرة المخصصة للجانب الديني ربما تعزز صورة الهيمنة الفكرية لنخبة المجتمع على أعداد السكان الكبيرة، وربما تعكس مدينة الوركاء هذه الصورة كونها العاصمة الدينية للجزء الجنوبي من بلاد الرافدين. فقد ضمت المدينة مجموعة من المعابد التي أظهرت تطورات كبيرة في الأساليب المعمارية المستعملة في المعابد، وقد تطلب بناء هذه الصروح المعمارية الكبيرة وجود إدارة قوية قادرية على تنظيم العمالة الكبيرة التي شاركت في البناء. قام الباحث(هانز نيسن) بحساب قوة العمل اللازمة لإنشاء وصيانة معبد آنو أو مجمع المعبد الأبيض في الوركاء وقدرها ١٥٠٠ عامل يعملون لمدة عشرة ساعات يومياً ولمدة تزيد عن خمسة أعوام. إن مشاريع البناء الضخمة هذه ربما تكون قد عملت على وضع برنامج تشغيلي لعدد كبير من العمال ولمدد طويلة من الزمن وهو مؤشر ربما عزز العلاقة بين الصفوة والطبقات الاجتماعية التي يمثلها العمال [22].

وكما هو الحال في مدينة الوركاء وجدت مثل هذه المنشآت العامة في مدن أخرى، منها المعبد الذي كشف في تل العقير، الواقع على بعد ٨٠ كم جنوب بغداد في منتصف المسافة بين المسيب على الفرات والصويرة على دجلة في منطقة مشروع المسيب الكبير، المعروف بالمعبد الأبيض، الذي يؤرخ من هذا الدور الحضاري نفسه. حملت جدرانه كثير من الرسوم الجميلة التي تعكس اهتمام مشيديه بإبراز الجوانب الجمالية لغرض لفت أنتباه زائريه. ربما كان هذا المعبد قد حظي بذات الأهمية التي كانت لمعابد مدينة الوركاء وأدى الأدوار نفسها[23].

كانت أسوار المدن في الشرق الأدنى القديم عبارة عن خط لتعيين الحدود بين المدينة والحقول أكثر من أن تكون خطاً دفاعياً، وقد كانت صفة البناء المعماري المتمدن وقد دلت سعتها وتخطيطها على أهمية وقوة المدينة [24]. إن الأسوار الدفاعية توضح مفهوم المركزية في السلطة على مجموعة معينة من الأفراد في حيز مكاني محدد، وأصبحت بوابات السور فاصلة بين المدينة من الداخل والخارج، وهي بمثابة حدود متعارف عليها. لذا عمل السكان على تعزيز الجانب الدفاعي في هذا العصر بوسائل مختلفة، فعلى سبيل المثال كانت عملية تشييد دور السكنى على مرتفعات إضافية فضلاً عن تلافي امتداد المياه بعمل سدود من التراب مألوفة من خلال الإدراك التجريبي، كذلك أدرك السكان بأن هذه السدود هي بمثابة أسوار وأنها أيضاً نوع من أساليب الدفاع ضد كل المخاطر الخارجية وتفيد في تطمين الجانب النفسي للتجمع السكاني في الداخل. ويعد سور الوركاء من أشهر الأسوار السور المعروفة من هذه الحقبة، كان يحيط بالمدينة، ويبلغ محيطه نحو ٩,٥ كم، وهو مزود بأبراج نصف دائرية. كانت المدينة من الداخل تضم مساحة من الأرض تقارب ٥ كم مربع، مزودة بأبواب فاصلة شكلت مع السور الدفاعي الحد الفاصل بين المدينة والمدن الأخرى[25].

طالما أن المدن الجنوبية مرتبطة مع بعضها البعض ومرتبطة بضواحيها أو الميناء التجاري، فإن ذلك يشير إلى وجود خط حدودي بين المدينة وبين ما يقع خارجها. وكانت هناك مدن نموذجية مثل لكش، تمثل مجمعات استيطانية حيث أن أساس عملية التمدن قد تركز في المدينة، وهكذا أصبح هناك نوع من الاتحاد فيما بين المستوطنات التي كانت تحيط بالمدينة [26]. بينما شكلت الضواحي القسم الثاني لهذه المدن، وكانت مكاناً لتجمع البيوت السكنية الريفية وزرائب الحيوانات والمزارع، وهي غالباً ما تقع خارج

المدينة [27]. فعلى سبيل المثال شكلت المناطق المحيطة بمدينة الوركاء ما يمكن وصفه بالمضيف الذي دأب على استيعاب الزيادات المضاعفة الكبيرة في الكثافة الاستيطانية في القرون الأخيرة من الألف الرابع ق.م، تلك الزيادات التي كانت تترافق مع التطورات الحاصلة في التسلسل الرباعي المتراصف للاستيطان، وهي أمور نتجت جميعها عن زيادة المتيسر من الأراضي الجافة والخصبة التي خرجت للتو من عملية الغمر عند حصول تحسن في الأحوال المناخية [28].

إن ما حصل في الضواحي التابعة لمدينة الوركاء أواخر الألف الرابع ق.م، من تطورات سياسية واجتماعية يمثل مظهراً من مظاهر الملكية وتدخل الدولة في عمليات الإنتاج والتوزيع للسلع، وشكلاً من أشكال التخصص الحرفي على المستوى الصناعي(التجاري)، وهو قرينة واضحة على سيطرة الدولة على العمل وتطور الممارسات والأفكار الخاصة بالتشريعات المتعلقة بتدوين وكتابة المآثر البطولية. وقد أشارت الدلائل إلى وجود مجتمعات متمدنة عديدة في السهل الرسوبي في أواخر الألف الرابع ق.م، على الرغم من الهيمنة البادية لمدينة الوركاء على الأجزاء الجنوبية من بلاد الرافدين في الألف الرابع ق.م [29]. عموماً عملت التفاعلات فيها بينها على خلق مسارات تعزيز داخلية أدت إلى نمو المدينة والتجارة والتوسع الجغرافي كوسائل لدعم وإبقاء الهيبة التي تتمتع بها مجموعات الصفوة المتنافسة [30].

دخلت دويلات المدن هذه في صراعات وحروب من أجل السيطرة على السهل الرسوبي وطرق التجارة في المناطق الجبلية من الأناضول وإيران، وقد أكدت أعمال المسح الأثري التي نفذها السيد روبرت آدمز عام ١٩٨١ في هذه المنطقة وجود هذا العدد الكبير من المستوطنات التي تؤرخ من عصر الوركاء، تجاوزت أو وصلت مساحة بعض منها ٢٠-٤٠ هكتار تقريباً[31]. الحجم الكبير والهيمنة الدينية والثقافية لمدينة الوركاء، بالمقارنة مع أي موقع آخر معاصر، ربما يرجع إلى وظيفة المدينة كعاصمة دينية لبلاد الرافدين في الألف الرابع ق.م[32]. بينما شهد الألف الثالث ق.م تشتت الوحدة الثقافية التي سادت في عصر الوركاء أي في الألف الرابع ق.م، وظهور ثقافات منفصلة، وفيه استضافت نواة الجزء الجنوبي من بلاد الرافدين نظاماً لدويلات المدن المستقلة حكمها ملوك ضعفاء طغت عليهم الصبغة الدينية ممن لم يتمكنوا من خلق القوة والوصول إلى الامتداد الجغرافي الذي حققته الوركاء في أوج عصرها[33]. لكن في أواخر هذه المدة حدثت تبدلات أساسية في تركيب حضارة بلاد الرافدين أبرزها؛ ظهور السلطة المركزية وتنامي قوة القصر مع انحطاط مكانة المعبد وكذلك التحول من دويلات المدن وما يربط تلك المدن من علاقات وثيقة إلى علاقات تميزت بسياسة التفوق والامتداد. فقد تميز الألف الثالث ق.م بظهور الدول الكبرى مثل الإمبراطورية الأكدية والسومرية الحديثة(سلالة أور الثالثة)، لكن ما يؤشر على هذه الكيانات الكبرى سرعة ظهورها وانهيارها، مما صعب فرص الإبقاء على آثارها[34]. كان لهذه الكيانات الكبيرة مركز أو نواة، يظهر تفوقها في المستويات كافة، وكان مركزاً عضوياً للفعاليات السياسية الاقتصادية والتعبدية، وهو رمز يعكس القوة، بل أنه بمثابة مركز الكون[35]. تفاعل هذا المركز بشكل منتظم مع مناطق الضواحي والأطراف في الجوانب الاقتصادية كما في حال العاصمة أور. لكن الهيمنة المركزية بواسطة القوة العسكرية على الأطراف والضواحي كانت حاضرة أيضاً. وقد شكلت الهيمنة العسكرية أحد وسائل الاتصال المطورة لتحقق الانتشار السريع للقطعات العسكرة وإنشاء الثكنات والحصون كمواقع استراتيجية. كما في حالة الوجود العسكري الأكدي القوي بجوار المستعمرات التجارية من مثل سوسة في هذه المدة[36]. وتؤشر حالة الصراع بين مدينتي أوما ولگش أهمية مناطق الأطراف والضواحي في الألف الثالث ق.م. فقد دخلت المدينتان في صراع طويل من أجل السيطرة على حقول (جويدينا= Guedina) في المنطقة الحدودية بينهما[37].

يمثل موقع أبو الصلابيخ مستوطن نموذجي لمواقع الألف الثالث ق.م، يقع على بعد ١٤٥ كم جنوب غرب مدينة بغداد، وهو بقايا المدينة السومرية أيريش. سكن هذا المستوطن منذ عصر الوركاء وطيلة عصر السلالات المبكرة حتى نهاية هذه المدة. بلغ ذروته خلال عصر السلالات المبكرة عند منتصف الألف الثالث ق.م، لكنه هجر مطلع الألف الثاني ق.م نتيجة حركة قاع النهر باتجاه الغرب. بلغ

حجم المستوطن نحو ٢٠ هكتاراً وكان مركز المدينة يقع على بعد ١٢ هكتاراً عن التل الرئيس وهو محاط بسور. ضم مخطط المدينة شبكة من الشوارع تمتد عبر كل المدينة وتخترق أحياءها محددة مواضع المناطق الحضرية فيها مؤدية إلى بوابات المدينة عند أسوارها. شغلت المنازل المبنية من اللبن معظم فضاءات المدينة، كما أحتوى المستوطن على أماكن يبدو أنها كانت مخصصة لرمي النفايات[38]. ضم أحد القطاعات في المستوطن أماكن أخرى يحتمل أنها شغلت بمبانٍ ذات طبيعة عامة غير سكنية، فضلاً عن مجموعة من المباني الإدارية عند النهاية الشمالية من المستوطن، كذلك كشف عن منطقة تركزت فيها أفران شيء الفخار قريبة من الحدود الشمالية للمستوطن وداخل أسوار المدينة. كما أن هناك مبنى قصر يعود إلى عصر السلالات المبكرة له سور مزدوج عند التل الجنوبي من الموقع، ربما كان قصراً أو بناية إدارية، وهو يؤكد أن الحاكم أو النخبة الحاكمة في تلك الحقبة المبكرة من تأريخ المدينة، قد سكنت في مجمعات منفصلة خارج أسوار المدينة [39].

قدر الباحث الآثاري نيكولاي بوسكيت مساحة البيت السكني بنحو ٣٤٣ متر مربع، وأفترض أن الهكتار الواحد في المستوطن أحتوى على ما يقارب ٢٦ بيتاً، أي أن العدد الكلي للمنازل يقرب من ٢٥٠ منزلاً لكل عشرة هكتار، وهي المساحة الحضرية من المدينة داخل أسوارها. وكشف في المستوطن عن عدد من الأحياء السكنية [40] . يبدو أن البيوت الكبيرة في المستوطن كانت مخصصة لإيواء العائلات الكبيرة، بينما كانت المباني الأكبر حجماً معدة للاستعمالات العامة كالمعابد والقصور، وربما كانت العائلات الكبيرة من بين الأسر المتنفذة كثيرة الثراء، في حين لم تكن العائلات المركزية من العائلات الثرية وأنها كانت تعيش في درجة من ضيق الحال[41] .

على الرغم من أن تقدير عدد السكان على أساس حجم المنازل تعد طريقة غير موثوق بها، إلا أن الباحث بوستغيت قدر عدد سكان هذا المستوطن، اعتماداً على مجموعة عناصر مختلفة يخضع العديد منها لعامل الشك وعدم اليقين بنحو ٢٢١٠ و ١٠٣٠٣ نسمة في عصر السلالات المبكرة [42]. بينما قدر الباحث الروسي (دياكانوف) سكان مدينة لكش من الأحرار بنحو ١٠٠٠٠٠ نسمة، أما السيد ليونارد وولي فقد ذكر أن سكان مدينة أور عندما أصبحت عاصمة لبلاد سومر كان نحو ٣٦٠٠٠٠ نسمة. وأفترض السيد كريمر أن رقمه هذا استند على مقارنات غامضة وافتراضات مشكوك بها، وربما يكون من المعقول تخفيضه إلى نحو النصف، وهو تقدير ما زال يضع في أور سكاناً يقرب عددهم من ٢٠٠٠٠٠ نسمة [43].

الهوامش:

(1) - Mallowan , M . E (1965). Early Mesopotamia And Iran . London , P . 15.

(2)- الهاشمي، رضا جواد (١٩٨١). الحدود الطبيعية لرأس الخليج العربي. مجلة الجمعية الجغرافية العراقية، العدد ١٣، بغداد.

(3)- Hole ,F (1994). Environmental instabilities and urban orgins.Madison,p.121ff.

(4) - Algaze,G(2001). Initial social complexity in southwestern Asia. J. Current Anthropology,Vol,42,№,2,p. 201-202.

(5)- بوتس، دانيال(٢٠٠٦). حضارة وادي الرافدين، الأسس المادية. ترجمة، كاظم سعد الدين، بغداد، ص١٨٨/ الهاشمي ، رضا جواد (١٩٨٥). التجارة . حضارة العراق ،ج٢، بغداد.

(6)- النجم، حسين يوسف(٢٠٠٦).اقتصاد القرى الزراعية خلال العصرين الحجريين الحديث والمعدني في العراق. اطروحة دكتوراه غير منشورة، الموصل. ص ٢٢/ .Mallowan , M . E (1965) .Op.cit,p.16

(7) - اوبنهايم ، ليو(١٩٨١). بلاد ما بين النهرين. ترجمة، سعدي فيضي عبد الرزاق، بغداد، ص ١٣٨.

(8) - Sjoberg ,G (1960).The preindustrial City: Past and present . New York ,p. 25-31.

(9) - النجم، حسين يوسف(٢٠٠٦). المصدر السابق الذكر، ص ٢٢.

(10) - كريمر، صموئيل نوح(١٩٧٣).السومريون. ترجمة، فيصل الوائلي، الكويت، ص ٩٩.
(11) - ساكز، هاري(٢٠٠٨). عظمة بابل. ترجمة، خالد أسعد، دمشق، ص ٢٥.
(12) - بوستغيت، نيكولاي (١٩٨١). حضارة العراق وآثاره. ترجمة، سمير عبد الرحيم الجلبي، بغداد، ص٢٠/
Perkins, A. L(1977). The Comparative Archaeology of Early Mesopotamia. Chicago, PP.46-96.
(13) - Rothman,M,S(2004). Studying development of Complex Society: Mesopotamia in the Late Fifth and Fourth Millennia BC. Journal of Archaeological Research, Vol. 12, No. 1,p.76. /Flannery,K.V(1998). The ground Plans of archaic states.USA.p.15.
(14) ماثيوس، روجر(٢٠١٥). آثار بلاد الرافدين نظريات ودراسات. ترجمة محمد صبري عبد الرحيم، بغداد، ص١٥٢.
(15) - Algaze,G(1993).The Uruk world system. The Dynamics of expansion of early Mesopotamia civilization.Chicago.p.153.
(16) - Nissen, H.J(1988). The Early history of the Ancient Near East 9000-2000 BC.Chicago,p.71-72.
(17) - Adams,R(1981). Heartland of cities. Surveys of Ancient Settlement and land use on the central Floodplain of the Euphrates .Chicago.p.80.
(18) - بوتس، دانيال(٢٠٠٦). المصدر السابق الذكر، ص ٢٨٩.
(19)- Rothman,M,S(2004).Op.cit,p.102/
ساكز، هاري(٢٠٠٨). المصدر السابق الذكر، ص١٨٧.
(20) - مجموعة من العلماء السوفييت (١٩٧٦). العراق القديم دراسة لأحواله الاقتصادية. ترجمة ، طه التكريتي، بغداد، ص ١٠٥.
(21) - سعيد مؤيد (١٩٨٥). العمارة من عصر فجر السلالات إلى العصر البابلي الحديث. حضارة العراق، ج ٣، بغداد، ص ١٠٥.
(22) - Algaze,G(2001). The prehistory of imperialism.The case of Uruk period Mesopotamia.USA.p.34.
(23) - سعيد، مؤيد (١٩٨٥). الرسوم الجدارية منذ أقدم العصور. حضارة العراق القديم، ج ٣، بغداد، ص٢٦٧.
(24) - اوبنهايم ، ليو(١٩٨١). المصدر السابق الذكر، ص ١٥٦.
(25) - الجادر، وليد(١٩٨٥). العمارة حتى عصر فجر السلالات.ج٣، بغداد، ص ٩٠.
(26) - اوبنهايم، ليو(١٩٨١١). المصدر السابق الذكر، ص ١٥٥-١٥٦.
(27) - المصدر نفسه، ص ١٤٠.
(28) - Nissen, H.J(1988).Op.cit,p.66-67.
(29) -Adams,R and Nissen, H.J(2001).The Uruk Countryside . The Natural Setting of Urban Societies.Chicago,p.158.
(30) - Algaze,G(2001). Op.cit.
(31) - Adams ,R (2008).An Interdisciplinary Overview of a Mesopotamian City and its Hinterlands. Cuneiform digital Library Journal 2008:1.
(32) - Algaze,G(2001). Initial social complexity in southwestern Asia. The Mesopotamia advantage.USA,p.210 .
(33) - ماثيوس، روجر(٢٠١٥). المصدر السابق الذكر، ص ١٦٢.
(34) - اوبنهايم، ليو(١٩٨١١). المصدر السابق الذكر، ص١٩٢-١٩٣/ . Postgate,N(1977). The first Empires . Oxford.
(35) - ماثيوس، روجر(٢٠١٥). المصدر السابق الذكر، ص ١٨٤.
(36) - Foster, B.R (1993).Management and administration in Sargonic period.in Liverani , M (ed).Akkad. The first world Empire.Padua.p.35.
(37)- كريمر، صموئيل نوح(١٩٧٣).المصدر السابق الذكر، ص ٧٢-٧٣.
(38) - Postgate,N(1990). - Excavations at Abu Salabikh, 1988-89 .Iraq, Vol,52. P. 95-106.

(39) -Matthews,R, Postgate,N(1987). Excavations at Abu Salabikh, 1985-86 .Iraq, Vol,49.P.91-119.

(40) - Postgate,N(1984).Excavations at Abu Salabikh, 1983. Iraq, Vol,46.№,2.P. 95-113/ ماثيوس، روجر(٢٠١٥). المصدر السابق الذكر، ص ٢٢٣.

(41) - Pollock,S(1999). Ancient Mesopotamia . Cambridge,p.123-127.

(42) - ماثيوس، روجر(٢٠١٥). المصدر السابق الذكر، ص ٢٢٥.

(43) - كريمر، صموئيل نوح(١٩٧٣). المصدر السابق الذكر، ص ١١٨.

Bibliography:

- awbinhayim , liu(1981).bilad ma bayn alnahrayni. tarjamatu, saedi faydi eabd alrazaaqi, baghdad.
- butis, danial(2006). hadarat wadi alraafidin, al'usus almadiyatu. tarjamatu, kazim saed aldiyn, baghdad.
- bustighit, nikulay (1981). hadarat aleiraq watharuhu. tarjamatu, samir eabd alrahim aljalbi, baghdad.
- aljadr, walid(1985). aleimarat hataa easr fajr alsulalat.ji3, baghdadu.
- sakzi, hari(2008). eazamat babli. tarjamatu, khalid 'asead, dimashqa.
- saeida, muayid (1985). aleimarat min easr fajr alsulalat 'iilaa aleasr albabilii alhadithi. hadarat aleiraqi, j 3, baghdadu.
- saeida, muayid (1985). alrusum aljidariat mundh 'aqdam aleusuri. hadarat aleiraq alqadimi, j 3, baghdadu.
- krimir, samuyiyl nuh(1973).alsumaryun. tarjamatu, faysal alwayili, alkuayti.
- mathius, rujar(2015). athar bilad alraafidayn nazariaat wadirasati. tarjamat muhamad sabri eabd alrahim, baghdad.
- majmueat min aleulama' alsuwfyitt (1976). aleiraq alqadim dirasat li'ahwalih alaiqtisadiati. tarjamat , tah altikriti, baghdad.
- alnajma, husayn yusf(2006).aqtisad alquraa alziraeiat khilal aleasrayn alhajariayn alhadith walmaediniu fi alearaqi. almusl.
- alhashimi, rida jawad (1981). alhudud altabieiat liras alkhalij alearabii. majalat aljameiat aljughrafiat aleiraqiat, aleadad 13, baghdadu.
- alhashimi , rida jawad (1985). altijarat , hadarat aleiraq ,ju2, baghdadu.
- Adams,R(1981). Heartland of cities. Surveys of Ancient Settlement and land use on the central Floodplain of the Euphrates .Chicago.
- Adams,R and Nissen, H.J(2001).The Uruk Countryside . The Natural Setting of Urban Societies .Chicago.
- Adams ,R (2008).An Interdisciplinary Overview of a Mesopotamian City and its Hinterlands. Cuneiform digital Library Journal 2008:1.
- Algaze,G(1993).The Uruk world system. The Dynamics of expansion of early Mesopotamia Civilization .Chicago.
- Algaze,G(2001). Initial social complexity in southwestern Asia. J. Current Anthropology,Vol,42,№,2.
- Algaze,G(2001). The prehistory of imperialism.The case of Uruk period Mesopotamia.USA.
- Flannery,K.V(1998). The ground Plans of archaic states.USA.
- Foster, B.R (1993).Management and administration in Sargonic period.in Liverani , M (ed).Akkad. The first world Empire.Padua.
- Hole ,F (1994) . Environmental instabilities and urban Origins. Madison.

- Mallowan , M . E (1965). Early Mesopotamia And Iran . London.
- Matthews,R, Postgate,N(1987). Excavations at Abu Salabikh, 1985-86 .Iraq, Vol,49.
- Nissen, H.J(1988). The Early history of the Ancient Near East 9000-2000 BC .Chicago.
- Perkins, A. L(1977). The Comparative Archaeology of Early Mesopotamia. Chicago.
- Pollock,S(1999). Ancient Mesopotamia. Cambridge.
- Postgate,N(1977). The first Empires . Oxford.
- Postgate,N(1984).Excavations at Abu Salabikh, 1983. Iraq, Vol,46.№,2.
- Postgate,N(1990). - Excavations at Abu Salabikh, 1988-89 .Iraq, Vol,52.
- Rothman,M,S(2004). Studying development of Complex Society: Mesopotamia in the Late Fifth and Fourth Millennia BC. Journal of Archaeological Research, Vol. 12, No.
- Sjoberg ,G (1960).The preindustrial City: Past and present . New York.